

مكتبة مصر
تقديم
مجموعة محمد وسعيد

واحد في السماء

إعداد أمير سعيد السحار



الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل منقلى بالنفجالة

مضى عمران بن حصين رضى الله عنه ، وقد بلغ به الضيق
والحزن مبلغاً كبيراً ، فلقد هاله الأمر ، وعلم أن والده (حصيناً)
قد طبع على قلبه ، فحيل بينه وبين الإسلام ، وكأنما أراد الله
أن يظل في ظلمات الشرك لا يدرى إلى أى غاية ستتهى به هذه
الحلقة القائمة ، والدجنة المهلكة ، يصطلى بنار عقيدة فاسدة
لا نجاة معها من هول القيامة ، ولا استقامة معها في أمور الدنيا .
ألا إنما الإسلام توفيق من الله ، ونور يضيء القلوب ،
ويشرح الصدور ، يُنعم الله به على من يشاء ، ويحرم من سواه
من يريد ، لا يتوقف على كثرة علم ، أو كبر سن ، وإلا فإين
هو من والده ، وهو الرجل الذى تعرف له قريش قدره
ومكانته ، تُجلّه إجلالاً عظيماً ، وتوقره توقيراً يجعله في مصاف
القديسين المطهرين ؟ .

وإذا ذكر اسم
حصين في قريش ، فإنما
ذكر العقل الكامل ،
والفكر الثاقب ،
والرائى الرشيد .



فما باله الآن ينكص على عقبيه ولا يحيب داعي الله ؟

مضى عمران يُدير هذه الأفكار في رأسه ، وتغضى بياغا في مخيلته ، حتى أجهده التفكير في هذا .. هو يعرف أن الهدى هدى الله ، وأنه مهما بذل ليسلم والده ويؤمن بالله ، فلا قيمة لبعيه إذا لم يرد الله ذلك ، وهو يعلم أن الله لم يكلفه بإسلام والده ، ولم يجعل هذا أمراً حتماً ، فليس هذا في مقدوره ، والله لم يكلف أحداً إلا بما يطيق . هو يعلم هذا ولكنه حزين على هذا الرجل الذي سيدفعه شركه إلى الهاوية في أعماق الجحيم .. إنه والده على كل حال ، وهو السبب في وجوده ، وإن من الإنصاف للحق أن يحله ويحرمه ، ويرجو له الخير على الثوام ، وهل هناك الفضل من الإسلام يتمناه له ، ويعمل على تنجيده به ؟

أجل ، من الإنصاف أن يحله ويحرمه ، ولكنه في الواقع لا يشعر نحوه بأي نوع من أنواع الاحترام ، أو أدنى عاطفة من عواطف الإجلال والتقدير ، ذلك لأنه يرى أن المسلم يجب أن يوقع عن تعظيم غير المسلم كأنما ما كان ، وهو لا يفهم غير هذا مهما اختلفت الآراء فيه .

وهكذا ، مضى عمران وهو يحمل بين جنيته قلباً لا ينظر إلى أي صلة لغير الله .

- يا حصين ، أنت تعلم منزلتك في نفوسنا ، ومكانتك في قلوبنا ، وإنا جئناك اليوم لأمر لا يصلح له أحد سواك ، فهل تحب دعاءنا ، وتحقق آمالنا فيك ؟

استمع حصين إلى وفد قريش ، وقد باتت على وجهه علام الاهتمام بهذا الموضوع ، الذي ملك عليهم كل أحاسيسهم ، وأخذ منهم كل ما أخذ ، ولم يزد على قوله :
- حصين خادم قريش الأمين .

- وهذا أملنا فيك ، دمت لقريش تحمي الدمار .
- مروا بما تشاءون .

- لعلك رأيت من أمر محمد ما أوقعك مثلنا في حيرة ودهشة وعجب ، إن دعوته تزيد كل يوم قوة على قوة ، وإن أعوانه ليكثر في إخلاص ومحبة ، وتعاون واتحاد ، حتى إن أحدهم ليؤثر أخاه على نفسه ، فيعطيه اللقمة بدل أن يأكلها ، ويناوله الشربة ، وربما فيها حياته دون أن يجذ من نفسه غصاصة أو ألماً ، وإن هذا الوضع هو أخطر الأوضاع على عقائدنا وأهليتنا ، وبخاصة وأن محمداً يذكر آلهتنا دائماً بسوء ، وبسببها من حين إلى حين ، ويسفه أحلامنا وعقولنا ، وأنا نعبئ ما لا يسمع ولا يعقل ، ولا يغني عنا شيئاً ..

- أجل ، أعرف هذا وأفهمه .

- لا بدّ إذن من حلّ لهذا الوضع ، فلا يجوز بحال من الأحوال أن يبقى هكذا مكتوفى الأيدي ، وهو دائب السعى والكد ، لا يهنّ له عزم ، ولا تضعف له قوة ، وإنما يعضى إلى غايته التي يريد في قوة وصرامة وعزم عجيب .. !

- وماذا تريدون ؟ أتودّون إيماءه وتشيت شمله ؟ إن كان ذلك

فقد فعلتم الكثير منه ، ولم يُفد شيئاً في إيقاف هذا التيار العجيب .

- لا نهى هذا ، ولا نريدّه ، ولكننا اعترفنا أمراً .. اعترفنا أن

بعثك إليه ، رسولاً من قبلنا ، تفاوضه بالّلين أن يدع ذكر الهيا ،

فلا يسبّها أحد من المسلمين ، ولا يسبّها هو كذلك . والا يذكر

أحلامنا بسوء ، وعسى إن فعل ، أن يقف سيل الدعوة وخطرها

عند حد ، ولا يعكّر علينا صفو عبادتنا ، ونعم عقيدتنا .

- ولكن اذهب وحيداً ؟

- سنذهب معك جميعاً ، ولكن لن ندخل إلى مجلس محمد ، وإنما

سنبقى خارج البيت ، وتدخل أنت وحدك .

وكأنما فهم حصين ، أنهم مُحِقِّقون فيما

ذهبوا إليه ، فله على محمد دالة لا شك ،

لأن ابنه عمران من أتباعه وأنصاره ، وأن

المسلمين جميعاً ينظرون إليه نظرة خاصة ،

تختلف عن نظرتهم إلى أى شخص عادي

غيره .

وهكذا ساقه القدر إلى مجلس الرسول

الكریم ، وجلس وفد قريش قريباً من



باب النبي ، وقد أمسكوا بقلوبهم الواجفة ، وأقنعتهم الخائفة ،
والتظروا ما تُسِفِرُ عنه هذه المقابلة ، التي سيروُب عليها كثيرٌ من
النَّالِج إذا لحج حصين في مسعاه ، وقبل محمد ما سيعرض عليه .
إنهم شعروا بالذلة والضعف أينما حلوا ، فما أعنف الطعن في
عقيدتهم ، وتسفيه أحلامهم ، وسب آلهتهم ، وهم لا يملكون
دفع الضر عن هذه الآلة التي لها في نفوسهم منزلة لا تعادلها
سوى الروح . إنهم يشعرون بينهم وبين أنفسهم بهذه الضعة
وتلك الذلة ، وخاصة وأن هذه الآلة لا تدفع هي عن نفسها
شيئاً . فما قيمة إله لا يدفع عن نفسه الضر ؟ إن الإله يجب أن
يصرف الكون ، وينفع ويضر ، فما بالها لا تُبدى حراكاً ؟ ولا
تجيب إذا سُئِلت ؟ ولكن هي العقيدة الموروثة لا غير ، على هذا
كان الآباء ، وعلى هذا كذلك يسير الأبناء ، دون عقل ولا
روية ، وكأنما هي الخراف تُساق إلى حضيها ، حيث النهاية
الأيمة التي لا مفر منها . وكان هذا الإحساس يفيض به قلب
كل فرد من أفراد الوفد القرشي الجالس قريباً من باب النبي
الكريم ، في انتظار حصين .

ولكن واحداً منهم ليست عنده
الجرأة الكافية لإذاعة هذا وإعلانه ،
لأنه يخشى أن يُتهم في عقيدته ،
أو يُظعن في أحب شيء إليه ،
وشئ آخر يمنع من الكلام ،
ويلزمه الصمت ، ذلك أن الدعوة





الجديدة ، ستجد من شهواته التي لا يجد مناصاً من الوقوع فيها
كعادة مُلازمة ، وطبيعة مُسيطر ، فلماذا لا يستملك بهذه
العقائد مع ما فيها من منافاة للعقل ، ومُجانبة للمنطق السليم ،
وقد كُفّلت له ما يريد من إباحية مُطلقة ولذاتٍ مختلفة .

وإذا خلا واحد من هؤلاء إلى نفسه ، حاول أن يكتب هذا
الشعور كتباً ، ويحقّقه حقاً ، فليس من المصلحة إعلانّه ، فلا
داعى لتحمل التبعات والمستوليات من حين إلى حين .

وكانت عيون هذا الوفد ترقبُ بابَ النبي ، وتكادُ تلتهم
كلّ داخلي أو خارج ، وأخذ خيال كلّ منهم يسبح فيما يمكن
أن يدور ، وما يُحتمل أن يحدث ، فهذا مشاغل ، ينظر من وراء
هذه الزيارة الخير الكثير ، ونجاح المسعى ، وإجابة الطلب ،

وبخاصة أنه مَطلَبٌ سَلَمٌ وديع ، وهذا متشائم ، ولكنه فهمَ
الموقفَ على حقيقته ، فلا يمكنُ محمدٍ أن يدعُ سبَّ هذه الآلهة
أو تسفيهاها ، لأن دعوتَه تقومُ على توهين عقائد الجاهلية ، ومحاربة
عاداتها المردولة ، وأدواؤها التي وضعت العرب هذا الوضع الشاذَّ
من تعدد الآلهة ، والضرب في فياق الخيال الكاذب والوهم الخائر .
لأبدُ إذن أن يوءَ هذا السعيُ بالخسرانِ والخيبة ، وهنا لأبدُ لقريشٍ
أن تفكرَ من جديدٍ فيما يجبُ أن تسرَّ عليه .

ولم يأبه عمرانُ بأبيه حصين حينما دخلَ إلى مجلسِ الرسولِ
صلى الله عليه وسلم ، بل ظلَّ جالسا ، ولم يلتفتْ ناحيته ، لأنه يرى
عِزةَ المسلم ، وذلةَ الكافر ، مهما كان وضعه ، وأن الاحترامَ لا
يكونُ لشيءٍ كائنا ما كان إذا خلا من الإسلام . وبهذا الإيمانِ
الثابتِ ظلَّ عمرانُ كما هو ، ولكنه عجب لوالده لماذا يحيى الآن ؟
وما علاقته برسولِ الله ؟ وفي أيِّ غرضٍ سيحدث ؟
وكيف وجدَ من نفسه الجرأةَ ليدخلَ إلى هذا المجلسِ

السامي ، والحضرة الرفيعة .

وهو على ما هو عليه من

الكفر والشرك ، والشيء



فى فىافى الضلال والفساد ؟ ترى اجاء يقاوم الفكرة الإسلامية ؟
أم هو ينوى اعتداءً مقبلاً ؟ إنه يعرف أن والده ليس عنده هذه
الروح مع أنه من الكافرين المتعصين ، إذن ، فهو يريد الهدنة من
الرسول الكريم ، فلا سباب ولا نقد لهذه الآلهة البكماء الصماء !
وذهل عمران حينما بدا على النبی الفرح والسرور لرؤية
والده حصين ، وخاصةً عند ما قال عليه السلام أوسعوا للشيخ .
وجلس حصين ، وقد سره أن يقابل بهذا الترحيب ، الذى لم
يكن ينتظره ، وشعر بعاطفة تجذبه نحو هذا الرجل العجيب ،
الذى يقف أمام العالم كله بهذا الإيمان القوى ، وتلك الشريعة
القليلة من المسلمين ، وأحس إحساساً عميقاً بمنزلة هذا الرجل



عند من بيده ملكوت السموات والأرض ١ .

شعر بهذا وأحس به ، ولكنه مع ذلك قال مخاطباً النبي الكريم !

- ما الذي بلغنا عنك ؟ بلغنا أنك تشتتم آلهتنا وتذكرها .

فصمت الرسول قليلاً ثم قال يا حصين ! كم تعبد من إله ؟

وأخذ حصين من هذه المفاجأة التي لم يكن يتوقعها أو يعمل لها

حساباً من قبل . ولكنه وجد نفسه أمام الأمر الواقع الذي

لا مناص منه ، وبخاصة وقد ألقى نفسه وسط جمع من المسلمين

فيهم ابنه ، فأجاب سبعة في الأرض

وصمت المسلمون ، وقد صاروا جميعاً آذاناً صاغية ، ليعرفوا

خير هذه الآلهة السبعة ، ولكن حصين أردف :

- وواحد في السماء !!

وهأنهم الأمر ، بيد أن الرسول الكريم لم يدع فرصة لتكلم ،

فقال متسائلاً في رفق وحزم :

- فإذا أصابك الضر ، فمن تدعو ؟

قال حصين ، وقد بدت عليه علامتُ الارتباك والحيرة :

- الذي في السماء !

- فإذا هلك المال من تدعو ؟

- الذي في السماء !

وهنا ثمت الحجة على حصين ، فقال الرسول الكريم :

- يستجيب لك وحده ، وتُشرك معه أرضيته في الشرك ١٢

وهنا ذهل حصين ، ولم يذر كيف يجيب ، إنه لخطب معقول ،

وإنه هو نفسه الذي سلم بهذه المقدمات ، دون أن يتدخل في



شأنه أحد ، فكيف إذن يتخلص من هذا الموقف ؟ حقاً ، إن إله السماء هو الذى يُجيبه ، وهو الذى يسمع دعائه ، وهو الذى يهرع إليه فى الملمات ، ويصرخ إليه إذا أصابه شر ، أو ناله مكروه ، فلماذا يُشرك معه آلهة الأرض ؟ مع أنها لا تقدم له شيئاً ، من خير أو شر ؟

ولم يدعه الرسول للشكوك تشابه ، ولا الظنون واخيلات تلعب به ، فقال له فى إقناع :
- يا حصين ، أسلم تسلم .

وكأنما كانت هذه العبارة القليلة مفتاح الخير ، وكأنما كانت جوارح حصين فى انتظارها ، وكأنما كانت السماء مفتحة الأبواب ، لاستجاب الله لرسوله هذه الرغبة الصادقة ، لاستجاب لها كذلك قلب حصين وغمره النور وشجته الضوء من كل مكان ، وأندحرت ظلمات الشرك أمام رغبة الرسول الكريم ، فقال حصين فى عزم وصراحة :

- أشهد أن لا إله إلا الله

وأن محمداً رسول الله .

وتكهرب الجو .



هذا رجلٌ كافر ، يدخلُ لينصرَ دينَ الشركِ والضلالة ، ويريدُ أن
 يظفرَ لقريشٍ بنصرِ يرضيهم ، فيظفرَ به الإسلامُ والمسلمون ... !!
 هذا رجلٌ دخلَ ليخرجَ حاملاً إلى وفدِ قريشٍ بشارَةَ السَّلامِ ،
 ويعلنُ لهم امتناعَ محمدٍ وأصحابِهِ عن الطَّعنِ في آلهِم ، والابتعادِ
 عن سبِّها ونقذِها ، فلا يصلُ إلى هذا ، وإنما يتعكَّسُ الوضعُ
 ويخرجُ إليهم وقد انسلخَ من دينهم ، فلا تكونُ البشارةُ موسى
 نذيرٌ يُنذرُهم بعذابٍ ما حقَّ إذا لم يُقْلِعُوا عما هم فيه ، وتَرجِعُوا إلى
 الطريقِ المُستقيمِ ، ويؤمنوا كما آمنَ ويهتدوا كما اهتدى !!
 هذا رجلٌ يدخلُ وهو زعيمٌ من زعماءِ قريشٍ يؤايهم
 ويؤالونه ، ويحبُّهم ويحبونه . ويعتبرونه حلالاً لمُعضلاتِهِمْ ومُلجأً
 لمن يبغي المشورةَ الناضجةَ ، والرأيَ السديدَ ، ويخرجُ وهم عدوٌّ
 لدودٍ من أعدائِهِمْ ، يعلنُ عليهم الحربَ مع المُعلنين ، ولا يسيرُ
 في رِكايبِهِمْ ولكن في رِكايبِ المسلمين !!



سبحان مقلب القلوب ! إن أمر الله إذا جاء فلا معقب
لحكمه ، ولا راد لما أراد .

وارتفعت همهمات من هنا وهناك ، واختلطت أصوات
مبهمة كلها الفرح والسرور الغامر .

ولكن صوتا ارتفع على هذه الأصوات جميعا ، وصاح صيحة
الفرح ، ذلك صوت عمران رضى الله عنه ، إذ قام من فوره وقد
اختلف شعوره عن ذي قبل اختلافا كبيرا ، قام إلى والديه وقبل رأسه
ويديه ورجليه ، وحار في أمره ماذا يفعل أكثر من ذلك ، ولكنه لم
يجد أدل من هذا على الاحترام والحب ، والتقدير والإجلال ..

ولما ضمت دموع حينذاك ،
ولكنها دموع عزيزة سامية ،
تلك دموعه صلوات الله
وسلامه عليه : لقد بكى
فرحا ، وغبطة وسرورا
وانشراحا بهذا المظهر
العجيب ، فليته هذه
الدموع ، مما ألقاها
وأطهرها !!

وذهل الصحابة حينما
رأوا هذه المناظر بطلت
الرعة العجية .. إسلام



رجل من أكابر قريش ، وليس هذا فحسب ، ولكنه كان يريد
نقاشاً وجدلاً ، ونصرة للكفرة والمشركين .. واحترام ابن له بعد ما
كان لا يحرمه ولا ينظر إليه ؛ لأنه كان حنبلياً من الكافرين . ثم بكاء
الرَسُول الكريم لمظهر هذا الاحترام من ابن مسلم لوالده أسلم وآمن
بالله ودخل في حظيرة المسلمين ...

وساد صمتٌ عجيب ، وشمل المجلس مكوّنٌ وهدوءٌ شامل ،
وتطلّعت العيونُ شاخصةً إلى الرَسُول الكريم الذي قال في
هدوءٍ وحنان :

— بكيتُ من صنعِ عمران .

وكأنما تساءلتِ العيونُ الشاخصةُ عن السبب ، فأردف :

— دخل حصين وهو كافر ، فلم يَقمُ إليه عمران ، ولم يلبِثتِ
لاحيته ، فلما أسلم وفي حقه ، فدخلني من ذلك الرقّة ..

وكفّكف الصحابةُ دموعَ الفرح من هذه المؤجّة الغامرة ،
وجلسوا يتسامرون حيناً ، حتى اكتفى حصين بهذه الجلسة
ليعود إلى وفد قريش الذي لا يزال ينتظره خارج الدار . وهنا
قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه :

— شيعوه إلى منزله .



وعجب بعض الصحابة لذلك ، ولكن البعض الآخر لهم السر في هذا ، وهو أنه صلى الله عليه وسلم خشي أن يسأل القرشيون حصينا بسوء ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، إن هذا تكريم له لإسلامه وإيمانه ، وتشجيع لغيره على الإيمان والإسلام .
وما إن خرج حصين من مئة الباب حتى هرع إليه القرشيون ، وفي عيونهم لب ويران ، وقلوبهم تلظى حقداً وكراهية ، ونقمة وثورة ، وانطلقت ألسنتهم تناله بسوء ، وتقول :
— قد صبات .

وتحوّلت النظرات إلى سُخرية وإشفاقٍ ورثاء ، ومَرَعانٍ ما تفرّقوا عنه .

وسار حصين إلى بيته ، ومعه صحابة الرسول الكريم ، وكان موكباً جميلاً ، رائعاً فناناً ، سجدت به القلوب المؤمنة ، وارتاحت له العيون النيرة ، وحفّه الله بالبركات والرحمات ، وما بألك بشخص بُدلت سيناته حسنات ..
لقد أثار به الكون ، ورُفرت عليه الملائكة ..

